ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189
ص ص 446-472

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
مجلد: 10 عدد 2 ديسمبر 2019
دور التجربة الصوفية

دور التجربة الصوفية في تأسيس الأبعاد الإنسانية: الأمير عبد القادر ومهاتما غاندي كأنموذجين

بركات عمار

جامعة معسكر، omarbarkat@univ-mascara.dz

تاريخ الإرسال: 31/ 07/ 2019؛ تاريخ القبول: 16/ 11/ 2019

The Role of the Sufi Experience in Foundating Human Dimensions: AMIR Abdelkader and Mahatma GANDHI as Models

Abstract:

The Sufisme is a religious movement that emerged in the Muslim world at the end of the second century hijri Islamic, which began in the context of individual tendencies, called for asceticism and austerity, and then became a method known as a form of spiritual and religious commitment, but after the fifth century became a school of philosophical theory with a vision of the world And existence.

With the advent of the colonial wave, Sufism also played a major role in the resistance, including Amir Abdelkader (1808-1883), who began his life as a mystic, and as a warrior of French colonialism, also a humane reformer and advocate for peace and the values of tolerance and dialogue.

المؤلف المراسل: عمار بركات
omarbarkat@univ-mascaraz.dz

We wanted to show through this paper the dimensions of the human mysticism of Prince Abdul Qadir, And that's compared to another man whose sufisme experience had an impact on his humane values: Mahatma Gandhi (1869-1948) who resisted British colonialism with peace and forgiveness.

The purpose of this paper is to show the human dimensions of Sufisme, as well as to know the values of The Mysticism of Amir Abdelkader in the human heritage and compare it with the Mystic GANDHI, the purpose of comparison is not the preference between them, but rather to analyze and highlight the role of Sufisme -Despite the different way between AMIR Abdelkader and Gandhi- in producing humane dimensions and highlighting humanisme between them with a focus on Amir Abdelkader, and the comparison between them is through their path towards Sufisme, their view of the whole Full Man, and their resistance to colonialism, through the dialectic of resistance and peace, and finally their intellectual products and the influence of sufisme in them.

Keywords: The Sufisme; AMIR Abdelkader; Mahatma GANDHI; The Humanism; The Full Man.

الملخص:

التصوف حركة دينية ظهرت في العالم الإسلامي في نهاية القرن الثاني الهجري، بدأت في إطار نزعات فردية؛ دعت إلى الزهد والتقشف، ثم أصبحت طريقة يُعرف بها أصحابها كشكل من أشكال الالتزام الروحي والديني، لكنها بعد القرن الخامس الهجري أصبحت مدرسة نظرية فلسفية لها رؤية للعالم والوجود.

وقد اتخذ في آخر مرحلة له منذ القرن السادس هجري طابع التصوف الطرقي، أي ظهور الطرق الصوفية، التي بالرغم من نزعات الزهد والتقشف إلا أن لها دور اجتماعي وثقافي وتربوي لعبته اتجاه المجتمعات والمجتمع الجزائري بالخصوص.

ومع ظهور الموجة الاستعمارية لعب التصوف كذلك من خلال رجاله دور كبيرا في المقاومة، ومن هؤلاء الرجال "الأمير عبد القادر"(1808-1883م Amir Abdelkader)، الذي بدأ حياته متصوفا وللاستعمار الفرنسي مقاوما، ثم مصلحاً إنسانياً وداعياً للسلم وقيم التسامح والحوار.

أردنا أن نبين من خلال هذه الورقة أبعاد التصوف الإنسانية للأمير عبد القادر، وذلك بمقارنتها برجل آخر كانت لتجربته الصوفية الأثر في

قيمه الإنسانية وهو "المهاتما غاندي"(1869-1948م) المقاوم للاستعمار البريطاني بالسلم والمسامحة.

فالهدف من هذه الورقة تبيان الأبعاد الإنسانية للتصوف، وكذلك إبراز قيم تصوف الأمير عبد القادر في التراث الإنساني ومقارنتها مع المتصوف غاندي، فليس الغرض من المقارنة هو المفاضلة بينهما، وإنما هو تحليل وإبراز دور التصوف -بالرغم من اختلاف طريقته بين الأمير عبد القادر وغاندي- في إنتاج أبعاد إنسانية وإبراز النزعة الإنسانية بينهما مع التركيز على الأمير عبد القادر، وتكون المقارنة بينهما من خلال طريقهما نحو التصوف، ونظرتهما إلى الإنسان الكامل، ثم مقاومتهما للاستعمار، من خلال جدلية المقاومة والسلم، وأخيرا إنتاجهما الفكري وتأثير التصوف فيهما.

الكلمات المفتاحية: تصوف؛ الأمير عبد القادر؛ مهاتما غاندي؛ نزعة إنسانية؛ إنسان كامل.

مقدمة:

لقد ظهرت التجربة الصوفية ومسّت جميع الأديان، باعتبارهاتشكل الالتزام الروحي الذي يحمل قيم الزهد والتقشف والتعبّد، ولا يعني ذلك بأن التصوف هو منغلق ومنعزل، بل العكس هو ممارسة منفتحة

وتدعو إلى المحبة والحوار والوئام والسلام، والتي تأخذ في الاعتبار القاسم المشترك مع الآخرين والمتمثل في الإنسانية.

وهذه المبادئ قد تجلت بشكل واضح للتجربة الصوفية في لحظة معرفتها الآخر خصوصا مع احتكاكها بالاستعمار، أين خضعت لاختبار في مبادئ الإنسانية وكيفية معاملة الآخر، ففي الاستعمار الفرنسي للجزائر في بدايته ظهرت مقاومة الأمير عبد القادر (1808-1883م)، وفي نفس الوقت تشكلت فلسفة النزعة الإنسانية في الغرب؛ التي نبذت الدين باعتباره في نظر فلاسفة عصر الأنوار مصدر الانغلاق والتطرف والتبعية، ليعطوا بديلا وهو النزعة الإنسانية المنفتحة وتجعل الإنسان مركز الوجود.

في مقابل ذلك نجد أن التجربة الصوفية للأمير عبد القادر قد تضمنت النزعة الإنسانية بالرغم من الفترة التي نشأ فيها الرجل؛ وهي الفترة الاستعمارية، والتي عاشها بعد ذلك لمدة قرن المهاتما غاندي (1869-1948م)؛ الذي كذلك عاش تجربة صوفية مكنته من أن يكون لنضاله مع الاستعمار البريطاني أبعادا إنسانية.

انطلاقا من ذلك؛ الإشكال الذي نريد طرحه هو ما دور التجربة الصوفية في التأسيس للأبعاد الإنسانية عند الأمير عبد القادر، ومهاتما غاندي رغم التباعد الجغرافي والديني بينهما؟

وباعتبار أن العصر الحالي الغالب عليه العنف المادي في شكل الحروب، والعنف الفكري المتميز بالتطرف فإن الإنسانية أجمع بحاجة إلى قيم السلام والحوار والاعتدال، والتصوف باعتباره ظاهرة إنسانية ليس ببعيد عن هذه القيم الذي يدعمها ويقويها.

ومنه نطرح التساؤلات التالية:

- ما هو أساس التجربة الصوفية؟
- كيف تصور الأمير عبد القادر الإنسان الكامل مقارنة مع غاندي؟
- كيف ظهرت الأبعاد الإنسانية في مقاومتهما للاستعمار؟

أولا: المحبة أساس التجربة الصوفية

إن ما يميز التجربة الصوفية أنها واحدة في جوهرها رغم اختلاف الطرائق والممارسات، فرغم أنه مرارا تطرح مشكلة تعدد التجارب الصوفية وتثاقفها وتأثرها ببعضها البعض، إلا أن هذه الإشكالية بعيدة

عن معنى التصوف في جوهره، وذلك لأنه نابع من الدين في حدّ ذاته، الذي هو أيضا متعدد كتعدد الثقافات والشعوب.

لذلك فرسالات الأديان لم تختلف في جوهرها وغرضها الإنساني، وإنما "جاءت كل رسالة تؤيد التي سبقتها وتتمها، وما يقوم بين الأديان من فروق في الأسلوب والأوامر والنواهي والأحكام والسنن، إنما هي لكي تتوافق واختلاف الأزمان والشعوب والبيئات والمناسبات التي جاءت فيها"(العدوي محمد صادق، 1992: 16).

وما قيل عن الأديان ينطبق كذلك على التجربة الصوفية سواء الإسلامية أم غيرها، فبقدر ما تتشابه مع التجارب الصوفية الأخرى كالتصوف الهندي في التأمل والزهد والترفع عن ملذات الدنيا، بقدر ما يكون لكل تجارب خصائصها المميزة لها، والنابعة من تعاليم كل دين لأنَّ التصوف هو "تسامٍ بالروح فوق كل ماديات الأرض وشهواتها، لأن الصوفي كما يقول أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء أبو حيان التوحيدي: هو ذلك الإنسان الكبير الذي يتخطى الحدود التي رسمتها للنوع البشر ماديتُه"(المرابط جواد، 1996: 07).

ولهذا فالتصوف يركز على الروح بدلا من المادة استنادا إلى النصوص المؤسسة ومنها النص السُني، في الحديث النبوي

الشريف:حَدَّثَنَا عَمْرٌو النَّاقِدُ ، حَدَّثَنَا كَثِيرُ بْنُ هِشَامٍ ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ بُرْقَانَ ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ الْأَصَمِّ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ". (جامع السنة وشروحها).

يقول الأمير عبد القادر مفسرا لهذا الحديث في الموقف السابع والثمانين من كتابه المواقف الجزء الأول:

"فَهُوَ تَعَالَى يَرَى وَيُبْصِرُ جَمِيعَ الأَشْيَاء حَالَ عَدَمِهَا وَحَالَ إِيجَادِهَا، وَلَكِن لَا يَنظُرُ إِلَيْهَا، بِمَعْنَى يَتَوَجَّهُ تَوَجُّهًا خَاصًا بِنَظَرٍ مَـخْصُوصٍ، وَرُؤْيَةٍ مَـخْصُوصَةٍ، بِخَيْرٍ أَوْ بِشَرٍّ، إِلَّا إِذَا أَرَادَ ذَلِكَ، وقوله: "إِلَى أَجْسَادِكُم" يَعْنِي إِذَا كَانَ الجَسَدُ مَثَلًا فِي الـمَسْجِدِ وَالقَلْبُ فِي السُوقِ أَوْ فِي الضِيعَةِ، أَوْ كَانَ الجَسَدُ فِي أَحَدِ الأَمَاكِنِ الشَرِيفَةِ، مَكَةَ أَوْ الـمَدِينَةِ أَوْ بَيْتِ الـمَقْدِسِ وَالقَلْبُ فِي غَيْرِهَا مِنَ الـمَشْرِقِ أَوْ الـمَغْرِبِ، فَلَا يَنظُرُ اللهُ تَعَالَى إِلَى الجَسَدِ.. وَقَوْلُهُ: "وَلَا إِلَى صُوَرِكُم" يَعْنِي لَا يُبَالِي بِهَا إِذَا كَانَتْ جَمِيلَةً كَامِلَةً أَوْ كَانَتْ قَبِيحَةً نَاقِصَةً، فَإِنَّهُ تَعَالَى مَا رَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ خَيْرًا وَلَا شَرًّا وَلَا ثَوَابًا وَلَا عِقَابًا، وَلَا كَرَامَةً وَلَا إِهَانَةً، إِذْ الإِنسَانُ مَا حَصَلَ لَهُ الشَّرَفُ عَلَى جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ بِحُسْنِ شَكْلِهِ وَصُورَتِهِ، فَإِنّ الصُورَةَ فِي الحَائِطِ أَوْ الوَرَقِ مِثْلِهِ، وَلَا بِكِبَرِ جِسْمِهِ، فَإِنّ الفِيلَ أَكْبَرُ مِنْهُ،

وَلَا بِشَجَاعَتِهِ فَإِنَّ الأَسَدَ أَشْجَعُ مِنْهُ، وَلَا بِكَثْرَةِ نِكَاحِهِ، فَإِنَّ أَخَسَّ العَصَافِيرِ أَكْثَرَ سَفَادًا مِنْهُ، فَمَا كَانَ لَهُ الشَّرَفُ إِلَّا بِإِنْسَانِيَتِهِ، وَهِيَ قَلْبُهُ، عَلَيْكَ بِالنَّفْسِ فَاسْتَكْمِلْ فَضَائِلِهَا* فَأَنتَ بِالقَلْبِ لاَ بِالجِسْمِ إِنْسَانُ،وَلِذَا قَالَ: "وَإِنّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُم"لِأَنَّهَا هِيَ الإِنسَانُ الحَقِيقِي، وَهِيَ مَحَلُ تَجَلِّي الحَقُ تَعَالَى وَهِيَ التِي وَسِعَتْهُ: بِالعِلْمِ وَالـمَعْرِفَةِ وَالظُهُورِ بِالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: مَا وَسِعَتْنِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي، وَوَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الـمُؤْمِنِ" (ابن محي الدين الأمير عبد القادر، 2004: 156-157).

من خلال كلام الأمير عبد القادر يتبين لنا أنه ربط بين القلب وبين النزعة الإنسانية، والقلب هنا هو ما يصدر عنه وهو المحبة، فالمحبة تزيد من إنسانية الإنسان، لذلك قارن الأمير بين الإنسان وبين المخلوقات، وبين أن الفرق هو المحبة، وهي التي جعلت الأمير أيضا نظر الله بطريقة رمزية وربط بين النظر وبين المحبة في استدلال متسلسل، فكلما زادت المحبة زاد تجلّي الله لقلب محبة العبد، وهذا التجلي حدّده الأمير في العلم والمعرفة والأسماء والصفات، وفي هذا تقاطع مع المتصوفة الأوائل حين قسموا المحبة إلى قسمين: "المحبة من العبد لله تعالى: إرادة الله

وتعظيمه..المحبة من الله تعالى للعبد: أن يخصَّه بالقرب والأحوال العالية"(الرازي يحي بن معاذ، 2002: 31).

"إذ نلمس في الطريق الصوفي للأمير جانب علمي وآخر عملي، والتكملة للعلم لابدّ أن يكون بموجبها التصوف عند الأمير عملا باعتبارها تحليا بالفضائل وتخليا عن الرذائل جسدها في النزعة الإنسانية على وجه الخصوص"(حمادي، هـ. 2014: 108)، وبهذا الجمع بين العلم والعمل في التصوف العملي ظهرت سلوكيات التسامح والحوار، واحترام البشر والأديان، الذي أشاد به للأمير الأعداء والأصدقاء.

وبالمحبة استطاع الأمير أن يجمع بين المقاومة وبين السلم، وذلك من خلال مواقفه اتجاه الأسرى كما سنشير ذلك لاحقا، وكذلك برزت المحبة عند غاندي عندما سُئل عن السرّ في أن الإنجليز لم يستطيعوا أن ينالوا منه أو يُخضعوه لسلطانهم مع ضَعفه وقوتهم، فقال: يرجع ذلك إلى سببين؛ الأول إني لا أملك شيئا يستطيع الإنجليز أن يأخذوه فحرصًا عليه أخضع، والثاني إني لا أطمع في شيء يستطيع الإنجليز أن يمنعوه مني وطمع فيه أخضع(المرابط جواد، 1996: 08).

وما جعل الصوفي يصل إلى تلك المرتبة هي تلك التراتبية في المحبة من الحب الجسدي إلى الحب الإلهي، حيث يرى روجيه

غارودي(Roger Garaudy 2012-1913) متحدثا عن ابن عربي واستمراريته في طريق الأولين غير أن المميز أنها ساهمت أكثر في الانفتاح على الآخر ومعرفته بعدما كانت زهدا وابتعادا عنهم، حيثُ يقول: "ابن عربي يؤكد الاستمرارية نفسها والوحدة ذاتها، ويميز ثلاثة ضروب من الحب؛ الحب الجسدي هو الحب الذي يسعى إلى إشباع رغباته الخاصة، والحب الروحي أي الحب الذي لا يشغله أي شيء عن إرضاء المحبوب دون أن يبقى للعاشق إرادة أخرى ولا قصد سوى معشوقه، والحب الإلهي يمنح معناه التام أشكال الحب الأخرى..فلا الحب الجسدي ولا الحب الروحي مستبعدان ولكن كلاهما رمزان مرحلتان لحب أسمى"(غارودي روجيه، 2001: 25).

مما يستدعي أن التجربة الصوفية بحكم ارتكازها على المحبة اتخذت طريقا وسطا بين المقاومة وبين الخضوع، فمن جهة يحافظ الصوفي على دينه وشرفه وقيمه وأخلاقه ووطنه، ومن جهة أخرى لا يخضع للآخر المتطرف والمستولي على الوطن، حيث يقول الأمير عبد القادر واصفا حاله في المحبة:

"عَنِ الْحُبِّ كُلَّمَا رُمْتُ سِلْوَانًا*أَرَى حَشْوَ أَحْشَائِي مِنَ الشَّوْقِ نِيرَانًا

لَوَاعِجٌ لَوْ أَنَّ البِحَارَ جَمِيعًا*صَبَبْنَ لَكَانَ الحَرُّ أَضَافَ مَا كَانَا

تَئِجُ إِذَا مَا نَجِدُ هَبَّ نَسِيمُهَا* وَتَذْكُرُ بِأَرْوَاحٍ تُنَاوِحُ أَلْوَانَا

فَلَوْ أَنَّ مَاءَ الْأَرْضِ طَرَا شَرِبْتُهُ* لَمَا نَالَنِي رَيُ وَلَا زِلْتُ ضَمْآنَا

وَإِنْ قُلْتَ يَوْمًا قَدْ تَدَانَتْ دِيَارُنَا* لَأَسْلُو عَنْهُمْ زَادَنِي الْقُرْبُ أَشْجَانَا

ويواصل قصيدته وفي نهايتها يختم بقوله:

وَمِنْ عَجَبٍ مَا هِمْتُ إِلَّا بِمُهْجَتِي* وَلَا عَشِقْتُ نَفْسِي سِوَاهَا وَمَا كَانَا

أَنَا الحُبُ وَالْمَحْبُوبُ وَالْحُب جُمْلَةُ* أَنَا الْعَاشِقُ الْمَعْشُوقُ سِرًا وَإِعْلَانَا"(ابن محي الدين الأمير عبد القادر، 2007: 117).

في هذه القصيدة يبين الأمير مكانة المحبة إليه، وكيف أنها تزيده قربا وشوقا إلى محبوبه الذي هو الله سبحانه وتعالى، لينتهي أنه في نهاية المحبة يصبح لا يميز بين الحب والمحبوب من شدة المحبة، وهذا ما يدل على أن الأمير جعل المحبة أساس التصوف، مما يجعل التصوف لدى الأمير عملي أكثر منه نظري، باعتبار أن الأمير في ناحية أخرى يعرّف التصوف بأنه "جهاد النفس في سبيل الله أي لأجل معرفة الله وإدخال النفس تحت

الأوامر الإلهية، والاطمئنان والإذعان لأحكام الربوبية، لا لشيء آخر من غير سبيل الله" (ابن محي الدين الأمير عبد القادر، 2004: 130).

ويحذر الأمير أيضا أصحاب البدع والخرافات في الصوفية الذي يتكلفون ما ليس في الدين ولا في السنة، يقول: "كمن يجاهد بالرياضات الشاقة لأجل طلب جاه عند الملوك أو لصرف وجوه العامة إليه أو حصول غنى، أو نحو ذلك من الحظوظ النفسية"(ابن محي الدين الأمير عبد القادر، 2004: 130).

ويواصل حديثه في جهة أخرى عن الذين يتساهلون في الدين بصفة مفرِطة وينبذهم بقوله: "وكما يفعل بعض المشايخ الجُهال بالطريقة أو الشريعة يأمرون المريد بالصيام، فإذا كان قرب الغروب أمروه بالفِطر حتى لا يكون له حظ في الأكل ولا في الأجر ففي اتباع السنة قولا وعملا وحالا أعظم جهاد للنفس، فلا أشق على النفس وأتعب لها من امتثال الأوامر ظاهرا وباطنًا واجتناب النواهي كذلك ومخالفتها عن طلب الشهوات الضرورية"(ابن محي الدين الأمير عبد القادر، 2004: 130-131).

وقد تجسدت كذلك المحبة عند غاندي وإن اختلفت ديانة كلا من الأمير عبد القادر وغاندي، فقد تشبّع غاندي بالتصوف الجيني النابع من

الديانة الجينية، على عكس ما يعتقده الأغلبية أنه كان بوذيا أو برهميا، باعتبار أن البوذية أو البرهمية هما أقدمتا ديانة في الهند.

تعتبر الجينية ديانة منشقة عن الهندوسية؛ ظهرت في القرن السادس قبل الميلاد، على يد مؤسسها "مهافيرا"، ولا تزال إلى يومنا هذا، إنها مبنية على أساس الخوف من تكرار المولد، داعية التحرر من كل قيود الحياة والعيش بعيدا عن الشعور بالقيم كالعيب والإثم والخير والشر، وهي تقوم على رياضات بدنية رهيبة وتأملات نفسية بغية إخماد شعلة الحياة في نفوس معتنقيها(الجهني مانع بن حماد، 1420هـ: 741).

ومن أهم معتقداتها وأفكارها؛ الكارما (وتعني الكائن المادي يخالط الروح ويحيط بها ولا سبيل لتحرير الروح منها إلا بشدّة التقشف والحرمان من الملذات)، والعواطف في نظرهم يجب قهرها والمشاعر جميعا من حب أو كره، حزن أو سرور، خير أو شر، ولا يكون هذا التحرير إلا بقتلها عن طريق العري حيث يعتبر في نظرها قمة قتل العواطف (هذا ما تطبقه فرقة ديجامبرا)، بالإضافة إلى تقديس كل ذي روح (يقدس الجينيون كل ما فيه روح تقديسا عجيبا حيث لا يعملون في الزراعة خوفا من قتل الديدان، ولا يذبحون الحيوانات ولا يشتركون في معركة خوفا

من إراقة الدماء، فهم مسالمون)، مما جعل غاندي هو أيضا مسالم ونابذا للعنف(الجهني مانع بن حماد، 1420هـ: 746-747).

وهذا ما يذهب إليه مصطفى محمود العقاد (1869-1964)في كتابه "روح عظيم المهاتما غاندي" حيث يرى أن غاندي لا يدين بالبرهمية ولا بالبوذية، ويدين بنحلة خاصة من نحل الديانة القديمة، وهي النحلة الجينية، وقد أثرت في غاندي وغرست فيه المحبة من خلال أن الجينية مع كونها نِحلة دينية هي في الواقع ثورة قومية على سلطان الغزاة الآريين، بل هي أقدم ثورة قومية في الهند على ذلك السلطان لأنها أنكرت نظام الطبقات الذي سجّل به الغزاة سيادتهم على الشعوب الهندية الأصيلة(العقاد مصطفى محمود، 2013: 45).

وبهذا فلا غرابة أن يرث غاندي ظروف ودواعي الثورة على الاستعمار على السيادة الهندية من الديانة الجينية، ولم يكن ليحتاج لجهد كي يتجه فكره وقيمه ومبادئه، خصوصا في مسألة إنصاف الضعفاء والدعوة إلى التسوية بين الطبقات.

ويتجه أيضا غاندي مثلما اتجه الأمير عبد القادر إلى مجاهدة النفس، ويقيم مقارنة بين الاستقلال أو ما يسميه السواراج وبين ضبط النفس أو الاهمسا ومقاومة العنف بالحسنى، فيقول: "إن الاهمسا مقدمة على

السواراج، لأنها هي الاستقلال الصحيح" ويريد بذلك أن غاية الاستقلال هي خلاص البلاد من الحكومة الأجنبية، ولكن الإنسان قد يحكم بلده ولا يحكم نفسه، ولا يفلت من طغيان شهواته وأهوائه، وإنما كان حكم النفس هو الاستقلال جِدُّ الاستقلال(العقاد مصطفى محمود، 2013: 09).

ومنه نستنتج أن المحبة هي أساس بناء التجربة الصوفية لأنها تجعل الصوفي محبا لكل شيء حوله، وهذا ما يجسده كلا من الأمير عبد القادر وغاندي من خلال نظرتهما إلى الإنسان ونزعتهما الإنسانية.

ثانيا: النزعة الإنسانية مع الأمير عبد القادر والمهاتما غاندي

لقد أدى تجذر المحبة لدى الأمير عبد القادر إلى تمظهرها إلى سلوكات وأفعال انتقلت به من النظرة القبلية التي كانت محيطة به إلى نظرة إنسانية شاملة وعامة، وما يراد بها عند الأمير عبد القادر من خلال أقواله بأنها "النسب الإرادي الحقيقي، الذي أراده الأمير أن يكون صلة الوصل بينه وبين أخيه الإنسان شرقيا كان أم غربيا أو أوروبيا، مسلما أو مسيحيا"(فؤاد صالح السيد، 2007: 117)، انطلاقا من وحدة الأديان وإن اختلفت شرائعها، كما يقول الأمير عبد القادر: "أساس الديانة وأصولها خلاف فيها بين الأنبياء من آدم إلى محمد عليه الصلاة والسلام،

فكلهم يدعون الخلق إلى: توحيد الإله وتعظيمه"(فؤاد صالح السيد، 2007: 117).

تتميز مقاومته بالمسامحة حتى مع أعدائه ومعاملته الحسنة خاصة مع الأسرى، وذلك نابع من سماحة الدين الإسلامي الحنيف ورسوله الأكرم، وذلك ما تقره حفيدته الأميرة بديعة الحسني حيث تقول: "فمنع تحت طائلة العقوبة قطع الرأس والأذن أو أي أعمال وحشية على الرغم من أن أعدائه كانوا يمارسونها ويرتكبون أفظع الأعمال، ولكن الأمير كان يتقيّد بشكل دقيق بقوانين الحرب في الإسلام وبالشريعة التي فرضها الله فكان يكافئ كل مجاهد يأتيه بجندي فرنسي بحالة حسنة، وإذا اشتكى الأسير من سوء المعاملة حُرم المقاتل الجزائري من أي مكافأة وعوقب"(الحسني الجزائري بديعة، 2008: 17).

كل هذه المعاملة رغم من المعاملة الوحشية للمستعمر الفرنسي التي كانت همجية وتصر على إبادة الناس ومعايشهم، حيث يذكر محفوظ قداش دليلا على همجية المستعمر من خلال وثيقة لأحدى الفرنسيين، يقول: "نكتفي بذكر هذه الرسالة لتبيان الفرق بين الحربين، وهي وثيقة بعث بها سانت أرنو(Saint Arnaud 1854-1798) في 18 يناير

1844م إلى رؤسائه: لن أترك لهم شجرة واقفة في بساتينهم ولا رأسا بين كتفي هؤلاء الأشقياء"(قداش محفوظ، 1983: 51-52).

هذا ما يبين أن تكون قيمة النزعة الإنسانية لدى الأمير عبد القادر وما يشهده الأسرى خير دليل على ذلك، وأهم شهادات هما:

شهادة الكابتن مرويزو الذي تكلم عن حادث أسره: بعد ساعات فتحتُ عيني فوجدتُ نفسي في معسكر سيدي مبارك بن ملال، ولم أكد أصدق ما حصل لي، إذا كنت ما أزال أحتفظ برتبي وأيضا بوسام الشرف، لم ينتزع مني أي شيء وشعرتُ أنني في مأمن داخل الخيمة ممدودا على فراش نظيف وإلى جانبي جرة ماء وكأس من شراب الليمون.

وشهادة ثانية من ضابط آخر يحمل نفس الرتبة يسمى شمتيز قال: أن والدة الأمير كانت بوضع خيم الأسرى من النساء إلى جانب خيمتها في الزمالة، وكانت تشرف على الاعتناء بهن وتأمر لهن حتى بقهوة الصباح والحليب وكل ما يرغبن به، وذات مرة صادفتها بعد أسري في معركة سيدي إبراهيم، فقالت لي: ما الذي جاء بكم إلى بلادنا؟ لقد كنا ننعم بالسعادة والهدوء والرخاء، ثم جئتم تثيرون أعاصير الحرب

والويلات والدمار، عودوا إلى بلادكم وأهليكم وأرجو من الله الغفران لكم. (محمد باشا، 1903: 75-76).

للشهادة الثانية بالإضافة إلى دلالة النزعة الإنسانية المتمظهرة في المعاملة الحسنة للأسرى، إلا أن لديها دلالة أخرى وهي أن الأمير قد هذه السلوكيات من والديه وذلك اقتداءً به، مثلما حارب الطرق الصوفية الضالة مثلما فعل أبوه قبله، لأن الأمير قد سمع تصرف أبيه اتجاه انحراف الطرق الصوفية، فقد ورد في كتاب تحفة الزائر عن تعامل الشيخ محي الدين أبي الأمير عبد القادر مع التصرفات الخارجة عن الدين: "أصله (محمد ابن شريف) من الكسانة قبيلة من البربر بوادي العبد قبلة غريس أخذ العلم في صغره عن سيدي الجد السيد محي الدين في مدرسة بالقيطنة ثم رحل إلى المغرب الأقصى فأخذ من علماء فاس الولي الشيخ العربي الدرقاوي وسلك طريقته، ونقل إلى وطنه، وجاء إلى حضرة سيدي الجد زائرا، وفي بعض الأيام تكلم بحضرته بما يوجب تأديبه شرعا فأدبه سيدي الجد بالسياط واستتابه"(عشراتي سليمان، 2011: 128).

انطلاقا من هذه التنشئة الدينية والاجتماعية للأمير عبد القادر، بالإضافة إلى منابعه الفكرية والصوفية تشكل تصوره للإنسان الكامل من

خلال أنه هو العارف بالحقيقة المحمدية التي تتراءى له في كل الشيء، ولهذا معرفة العارف تكون مرتكزة على الشريعة والحقيقة، فحسب الأمير "طريق الولاية هو طريق الخلوص في العبادة، وثقافتها ارتياض قائم على تمسك يقظ بتعاليم الشريعة، فالشريعة جامعة للّب والقشر، والحقيقة لب فقط"(عشراتي سليمان، 2011: 128).

ومن جهة أخرى نجد الأمير يجعل الإنسان الكامل بتكامل عقله وروحه ويربطهما بالله، حيث يقول في الموقف السادس والثمانون: "جملة الإنسان: روح وعقل ونفس، فالروح واحد ومتعدد بتعدد الأعضاء، فهو واحد كثير، ولا يدير الجسم، والعقل هو نور الروح، وهو يدير الجسم بأمر الروح، والنفس هي نور العقل، وهي بمنزلة الخادم للعقل، فإن كمل كملت النفس، وبالعكس وجملة هذه الثلاثة أمر واحد وهو أمر الله" (ابن محي الدين الأمير عبد القادر، 2004: 155).

وهو ما يحيل إلى مبدأ وحدة الوجود، من خلال تجليات الخاصة من الله إلى الإنسان الذي يرتقي إلى الكمال، بالرغم أن كلا من الأمير وغاندي قد عبرا عنه كل حسب طريقته في التصوف، وهو ما عبر عنه غاندي عندما حدثت له حادثة سجنه بسبب زيارته لسكان إقليم تشامبران، ومجيء سكان الإقليم لديه بالرغم أنهم لا يعرفهم ولا

يعرفونه، والمرتبطة بالأهمسا كما أسلفنا الذكر، يقول في كتابه في سبيل الحق (قصة حياتي): " لو ذكرنا ذلك فلن أكون مبالغا إذا قلتُ أني حين لقي هؤلاء الفلاحين فإنما كنت ألقى الله، وألقى المحبة الحق وأن ما شاهدته منهم لا تفسير له إلا حبي للناس وإيماني بالكفاح المنزه عن العنف المتسم بالعنف"(غاندي المهاتما، 1969: 214).

وكما أن الأمير عبد القادر خلص المسيحيين من مجزرة في دمشق مع المسلمين، فإن غاندي كان لديه أيضا اتصال مع المسيحيين والمسلمين رغم أن لكل واحد دينه الخاص حيث حاول المسيحيون والمسلمون بشتى الطرق إقناعه باعتناق المسيحية وكذا الإسلام، فرغم هذه المحاولات إلا أنه يقر بصداقتهم بدون عداوة ولا تطرف حيث يقول غاندي: "كما كان أصدقائي المسيحيون يحاولون أن يحملوني على اعتناق دينهم كذلك كان أصدقائي المسلمون يحاولون حملي علي اعتناق الإسلام...وعلي الرغم من أنني سلكت طريقا آخر غير ما أراده لي أصدقائي المسيحيون فقد بقيت أشعر بما في عنقي من جميل لهم"(غاندي المهاتما، 1969: 99).

ولذلك فقد ارتبط الأمير بالسلم ونبذ العنف وهو ما جسدته النزعة الإنسانية من خلال مواقفه وأقواله خصوصا في تدخله في فتنة

1860م في دمشق، حيث شهد له التاريخ بموقفه البطولي بالتدخل لإنقاذ المسيحيين من مذبحة أكيدة، وبهذا استطاع أن يحقق عمليا أسلوب الأريحية العربية في النجدة والبذل، وحماية الدماء، وطابع الإيمان الإسلامي في التسامح والأخوة الإنسانية. (فؤاد صالح السيد، 2007: 117)

في هذه الحادثة تجسدت عبقرية الأمير في التعامل مع أحداث العنف، خصوصا أن خصومه قد حاجوه بأنه كان مقاوما للنصارى، فكانت ردوده في منتهى العقلانية والحجة الدامغة، ولنتوقف عند حوار الأمير عبد القادر مع المحرضين -الذين طالبوه بتسليمه النصارى- لنستشف ذلك الحجاج العقلاني المنطقي:(بالسايح بوعلام، 2008: 20-21)قال لهم الأمير مخاطبا: "يا إخواني، إن تصرفكم معيب، فهل نحن في حرب حتى يحق لكم قتل الناس؟ إلى أي درك انحدرتم، وأنا أرى مسلمين ملطخين بدم نساء وأطفال! ألم يقل الله: {مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا}(المائدة: الآية32) ألم يقل أيضا: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}(البقرة: الآية256)"، فرد عليه أحد قادة الحركة التمردية بسخرية وبذاءة: "يا جندي الجهاد لا نحتاج إلى نصائحك، ولا نطلب منك وعظا، ما دخلك في شؤوننا؟ أنت الذي كنت تحارب المسيحيين بالأمس، كيف تعارض أن

تنتصر من إهانتهم؟ يا ناقصا للوفاء، سَلِّمنا هؤلاء الذين خبأتهم في بيتك، إن لم تفعل فإننا سوف نشملك بالتحريم الذي شملنا الكافرين وسنجمعك مع إخوانك"، عندئذ أعطى الأمير الأمر لرجاله بالهدوء، وقال: "أيها الجهلة! إذا كانت فكرة عمل إجرامي ومخالف لشريعة الله لا تخيفكم، فعلى الأقل فكروا بالعقاب الذي سيُنزله بكم الناس؛ أقسمُ لكم أنه سيكون عقابا رهيبا، توفقوا ما زال الوقت مناسبا، وإذا لم تصغوا إليَّ، فهذا دليل على أن الله قد ذهب بعقلكم، فما أنتم سوى بهائم تثيرها رؤية العشب والماء لا غير، أما أنا فلم أقاتل النصارى، بل غزاة كانوا يدَّعُون أنهم نصارى".

من هذا الحوار يمكن أن نتتبع حجاج الأمير عبد القادر وسبيله إلى إقرار السلم، لنظرته الشاملة للإنسانية، فكان إقراره للحرب فقط للغزاة، أما اللاجئين فهم ضيوف ولا يجوز محاربتهم، فلو لم يتدخل الأمير لكانت نتيجة هذا العنف وخيمة على العالم الإسلامي، لاسيما في تلك الفترة المتوترة والمخزنة بالنزعة الاستعمارية، وهذا العمل الذي قام به نابع من تجربته الصوفية التي علمته المحبة وتقبل الرأي المخالف، ونبذ العنف، والتي نال به التشريفات من الدول الأجنبية الأخرى.

خاتمة:

في هذا المقال حاولنا أن نقارب موضوع الأبعاد الإنسانية خصوصا في النزعة الإنسانية والإنسان الكامل عند الأمير عبد القادر والمهاتما غاندي، فرغم أن المنابع الدينية والفكرية مختلفة بين المتصوفين إلا أن النتيجة كانت وحيدة وهي الوصول إلى الأخوة الإنسانية ونبذ العنف، وإقرار الحوار، والمحبة بين الناس.

وفي الأخير يمكن القول أن التجربة الصوفية تجربة متخللة في كل الأديان، وما زاد في تخللها الجانب الروحي الذي يركز عليه التصوف وبالخصوص المحبة، التي تقبل الاختلاف وتسمو بالإنسان الصوفي إلي أقصي الدرجات.

هذا ما جعلها عبر مراحل التاريخ تبرز رجال عظماء، ومن هؤلاء ما أوردناه في هذا المقال: الأمير عبد القادر ومهاتما غاندي، المتزامنين تقريبا في نفس الفترة ، والمعايشين للاستعمار.

جعلت هذه الظروف من تجربة الرجلين نماذج عالمية تظهر فيها النزعة الإنسانية المتضمنة لقيم السلم والحوار والاعتدال ونبذ التفرقة والتطرف والعنف. فالأمير عبد القادر برزت مواقفه في التعاملات مع

المسلمين وغير المسلمين الفرنسيين المستعمرين بشكل لائق وراقي، وكذلك غاندي في تعامله مع طوائف الهند والانجليزيين المستعمرين.

وهذا ما يثبت أن التجربة الصوفية لديها دور كبير في بروز النزعة الإنسانية باختلاف الأديان والطوائف. مما يؤشر على أن التجربة الصوفية لديها أبعاد إنسانية خصوصا في وقتنا الراهن في ظل التطرفات والصراعات الدينية والطائفية.

المراجع:

- ابن محي الدين، الأمير عبد القادر، (2004). **المواقف الروحية والفيوضات السبوحية الجزء01**، تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي، ط01. بيروت: دار الكتب العلمية.

- ابن محي الدين، الأمير عبد القادر، (2007).**ديوان الأمير عبد القادر**، تحقيق: العربي دحو، ط03. الجزائر: منشورات ثالة.

- جامع السنة وشروحها، في الرابط: http://hadithportal.com/index.php?show=hadith&h_id=4779&uid=0&sharh=17&book=31&bab_id=

يوم الزيارة: 05-11-2019.

- الجهني، مانع بن حماد، (1420هـ). **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة-المجلد02**، ط04. الرياض: دار الندوة العالمية.

ـ الحسني الجزائري، بديعة، (2008).**الأمير عبد القادر حقائق ووثائق**، الجزائر: دار المعرفة.

ـ العقاد، مصطفى محمود، (2013) . **روح عظيم المهاتما غاندي**، القاهرة: مؤسسة هنداوي للعلم والثقافة.

ـ العدوي، محمد صادق، (1992). **الإنسان هذا الكائن بين العالمين**، ج01: الاتصال الروحي. ط01. الإسكندرية: دار صادق للنشر.

ـ المرابط، جواد، (1996).**التصوف والأمير عبد القادر**، دمشق: دار اليقظة العربية.

ـ الرازي، يحي بن معاذ، (2002). **جواهر التصوف**، تحقيق: سعيد هارون عاشور، القاهرة: مكتبة الآداب.

ـ بالسايح، بوعلام، (2008). «الأمير عبد القادر رمز القيم الإنسانية العالمية»، مجلة الفكر البرلماني مجلة يصدرها مجلس الأمة، الجزائر، العدد 20، جويلية2008. ص15-24.

ـحمادي، هواري، (2014). «**أبعاد التصوف عند الأمير عبد القادر**». مجلة الناصرية، تصدر عن مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، العددان05-06، ص ص 103-119، الرابط في بوابة المجلات العلمية الجزائرية: https://www.asjp.cerist.dz/en/article/7929

ـ محمد، باشا، (1903). **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر**، الإسكندرية: المطبعة التجارية.

ـ عشراتي، سليمان، (2011). **الأمير عبد القادر المفكر**، ط01.الجزائر: دار القدس العربي.

ـ فؤاد، صالح السيد، (2007). **الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا**، الجزائر عاصمة الثقافة العربية2007، سحب الطباعة الشعبية للجيش.

ـ قداش، محفوظ، (1983). «جيش الأمير عبد القادر وأهميته»، ترجمة: حسن بن مهدي، مجلة الثقافة الجزائرية، العدد 75، ماي جوان 1983، ص ص 51-74.

ـ غاندي، المهاتما، (1969). **في سبيل الحق (قصة حياتي)**، ترجمة: محمد سامي عاشور، مصر: دار المعارف.

ـ غارودي، روجيه، (2001). **الإسلام**، ترجمة: وجيه أسعد، ط02. الجزائر: المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار.